رأيـــان في قصيدة

السندباد في رحلته الثامنة

تلقينا هذا الشهر دراستين لقصيدة الدكتور خليل حاوي « السندباد في رحلته الثامنة » وقد رأينا ان ننشر هاتين الكلمتين معا فــي هـــذه الصفحات

الرأي الاول

بقلم اميل المعلوف

السندباد في رحلته الثامنة قصيدة جمعت الى عنصر الثقافة والخلق الفني عنصرا اخر تلاشت فيه الثقافة بما هي محصل معرفة وجمع لترفد الابداع واذا الكل في وجهة التوق الى الكمال الحق .

يبلغ السندباد في رحلته الاخيرة نهاية النهايات ، ذلك انه في مجال استكمال الغاية التي يسعى اليها قد وقع تحت حكم الضرورة الموحـــدة للذات من بين متناقضات الكون . وانه في سعيه الدائب قد وعي الوسيلة الحتمية التي تصله بالغاية المؤلفة عن طريق البرء الداخلي ، لا عن طريق المقدر العجيب . سرما في السندباد انه فاعل في الوجود ، متحـــرك بفعل الغريزة التي صفاها عود الى منبعها الاول ، فاضحت نارا تحيي ، لا نارا ترمد . وما عوده الذات الدنسة الى منبعها سوى قهر « الغــاز والسموم » في خلاياها وتنقية « الدم المحتقن الملغوم » في عروقها .

يستهل الشاعر قصيدته بذكر خبر السندباد الذي اختاره ليعبر بـــه عن انسانه ، كما اختار قبله صلاح لبكي ادم في « سأم » وكما فعل دي فيني منذ قرن عندما اختار « عمانوئيل » في قصيدة « الطوفان » للغرض نفســـه .

يروي السندباد مغامراته خلال رحلاته السبع . انه يذكر الدار تبحـــر معه بكيان مستقر ، ذلك انه لم يشأ ان يتنكر لماضي ايامه بما يحمله هـــذا الماضي من تبذل وفجور . ذكر الدار هنا على علتها عمدة في القصيدة . انها الوجه اللاهي الذي يسخر من الاخلاق ، والدين ، والحاضر المجدد فهذه القوى تنتقض على نمط العيش النامي في احضان الاثم . كيف كان يتاتى لنا ان نسبغ على البيت الجديد حيوية ظاهرة وان نبرر غور المستنقع ونشوء بناء على ارضه يلم الشتات لغاية نبيلة ، لو احجمنـــا عن ذكر الجوهر التاريخي لحياة السندباد ، الممثلة بالدار الملوثة .

كان صاحب القصيدة في « نهر الرماد » يمني نفسه بماوى ينهــض به من شارع موحل ، من دهليز لعين ، من فندق مخرب ، ومن بيـــت متداع ثل فجرفته المياه . انه الان اكثر وثوقا من ذي قبل ، لان التجربة قد لبست شكلا ايجابيا هذه المرة . لقد نقل السندباد حياة البـــار والدهليز الى داره في مستهل عهده ليبرر قضاءه فيما بعد علـــى التعسف الخلقي ، ورفاق اللذة . فالدار وان كانت متحف رســـوم « سادية » لاتزال دارا بمفهومها البناء .

يعمد الشاعر الى الرمز . فيبين لنا موقفه وموقف شعبه من المـراة . ثم لايلبث ان يتنكب لتجربة الجماعة . فيميل الى العزف المفرد ، حتـــى اذا لامس الخلاص من وهدة الخطيئة ، داخلت نفسه معرة من ظلـــم الوجود . واذا خلاصة قد علقت بتلابيبه حسرة من تصرم العمر . فالحب طاهر يمتص الجفاف ، ويهدر في الضمير ، ورغوة العيش تنتفض فتغمـر الكائنات . ولكن ما هناءة النبع بفورانه ، وقد حملت كل قطرة منـــه ظل جفاف نازف من اخدود النبع المتدفق .

العمـر لـن يقول
يا ليت مـــن سنـين .

هنا يظهر اول خيط من خيوط القصيدة الخفية : نعمة ناقصة تشـــاد على انقاض نعمة ممتلئة . ولكنها اثمة . مجرمة ، لا انسانية .

لقد هيأ السندباد لخلاصة تجاربه بمراحل اربع : الاكتفاء بالاثـــم اللاواعي ـ اكتفاء الروح في وعي الاثم ـ ومضة الحب الموحد ـ رؤيا ونعمة مكتملة ـ

الاكتفاء بالاثم اللاواعي

رأى السندباد الى داره فوجدها تضج باطايب العيش ، فانفغـــرت نفسه على اللذة ، وراح الى رسوم الرواق يتقراها بيده ، ويخلع عنهـــا دثار الخدر . فينطلق الابطال في كشوف جديدة بعد عي من مماحكة اللذة . الاحياء من البشر في سدوم يبتعثون الرعب حولهم ويزرعون العهـــر ، والنار قد عقدت على رؤوسهم اكليلا من غضب الله وثورة الحق . وعلـى فتر من الارض المالحة ، انتصب كاهن في هيكل البعل وراح يتعاطـــى الاثم باشراقة المنتصر فيرشف الخمرة المضمخة بعبير الزهرة المغتصبة . وفي سرداب سحيق ، وقف المعري يتطاول الى الثمر المر في قبح المقصد وبشاعة الوسيلة .

راحت رسوم ذاك الجدار تبعث في النفس الضرم ، وتوري فـــي الذات الشهوة . واذا الكل قد وحل في الحب حتى الموت .

مـن هـــذه الرســوم .
يرشح سيل مثقل بالغاز والسموم .
تمتصه الحيـــة في الانثى
ومـا في دمهـــا مـــن عنصر الفجـر
والنمـر الاعمى وحمى يـــده
في غيـرة الذكـر .

في تلك المدينة المشتعلة تتحد الاشياء بالبشر ، اتحادا مبرما . فيسري الدم في عروق النار ، ويذوب ماء الوجه في الحجر الاسود ، ويفنى الكل في الكل حتى لم يعد هنالك تذوق لشيء ولا شعور بشيء ، نتيجة هـــذه اللحمة التي لاتؤلف على تفرقة ، بقدر ماتصهر وتذوب .

يرتمي السندباد في هذه الديمومة المستعرة ، متاثرا بغريزة الطفـــل في ثقلها النوعي . انه بارع في قطف الثمار ، عليم بالاغواء على غيـــر تبذل ، ممعن في سرار التمويه والطلاء .

اغلف الشفاه بالحرير
بطانـة الخناجـر الرهيفة
لحلوتـي ، لحية الحرير .

هذه المرحلة التي تردى فيها السندباد اخصبت اخصابا مرا ، لانـــه انطلق هنا بفعل المحاكاة والميل البدهي الى اختيار الاثم ، لا بفعل الوعي الصحيح لمشكلة الحب . لقد غفل السندباد عن الاختيار الاكمل فانتهى الى مجون غامر . وعذبته اللذة الواحدة بما تستتبعه من لذات . فامتلا اثما كلما لامس البرء من اوصاب الفجور . واذا هو امام ابيقورية يطعمها ذاتـــه .

اكتفاء الروح في وعي الاثم

استفاق السندباد على صوت ضميره يثور ويبكته . فقام الى داره يطهرها من رجس الرفاق ، ومودات النفوس الكاذبة . ردة الفعل هنـــا اقوى من الفعل لانها من مصدر الفعل ذاته . لقد وعى السندباد الاثم بغريزة الحياة وادرك ان الشهوة اذا لامست منتهى الحس ارتدت الـــى نقيضها متأثرة باخر دفعاتها .

لم يجل السندباد خلاصة الهم العالق في صدره عندما هدم نفســـه ليبتنيها من جديد ، وذلك لتشوقه الى معرفة الاسباب اللامعقولة التـــي ترهن وتقيد ، وكأنها استجابة مخلصة لالحاح انساني صادق هذا السير المعكوس للحوادث يظهر قدرة السندباد على الرفض . فهو من تعلـــة الوجود في صراع بين توقه الى الحب الخالص ومعاداة الطبيعـــة لهـــذا التوق في جميل غاياته .

... طلبت صحو الصبح والامطار ، ربي ،
فلماذا اعتكـرت داري
لماذا اختنقت بالصمت والغبا
صحـراء كلس مالـح بـوار .

احتكام السندباد الى الانسان فيه ، اخرج السؤال عن جموده ، وقضى على كآبة ولدها في نفسه تطلع الى حقائق مستسرة . كل سؤال يتضاءل امام معجزة الهدم والتشييد . فالدار تنهار بما فيها ثم « تلتم وتحيا قبة خضراء في الربيع » بفعل انساني خالص . لم يكن الذي مسح الدمعات والرسوم عن صدر السندباد ملكا من ملائكة الجنة. انه نفسه ملك يلج به الانتقام فيثور على مفاهيم بالية ، ويهتك استار الاثم المغلفة بخيوط اللذة المصطنعة، فتمرع الدار من جديد ، ويمسي صاحبها على تنظر لقدوم الحلوة البريئة.

لـن ادعـي ان مـلاك الـرب
القـى خمـرة بكرا وجمـرا اخضـرا
فـي جسـدي المغلـول بالصقيـع
.... لا ، لعلها الجـراح
لعله البحر ، وحف المـوج والريـاح
لعلهـا الفيبوبة البيضاء والصقيـع
شـدا عروقي لعـروق الارض
كـان الكفـن الابيض درعـــا
تحتـه يختمـر الربيـع .

لقد كتب على السندباد ان يعيش حضارة هو منها على تباين ظاهـر . حضارة اخذها بالتواتر عن السلف . انها ظلت في موضع الاساس مـــن تفكيره ومعتقده ، حتى شهد في ذاته ولادة القوى الفاعلة التي تبتنـــي وتهدم . وانتقلت نفسه من منطق الانفعال الى منطق الفعل لتغير فـــي مجرى خطها الحضاري ولتقضي بالتالي على نمط التفكير والسلوك الذي فرضته عليها الحضارة « التبعية » .

ومضة الحب الموحد

كان على السندباد ان يملأ داره بعد ان صفاها من اوضارها . فاشرع بابها للوافد الجديد . هذه الابلالة المعجزة تبعتها رؤيا عرضت للسندباد في اصفى حالاته . انها مجردة من الكلم ، مكتملة في صورها التـــي اختلطت بها الاصوات المصاحبة للرمز .

يتناهى الى السندباد من حومة الرؤيا نداء دله ووجد ، فيسفر عـــن خبزه ، وملحه ، وخمرته ، وناره ، ويهيىء النفس لاستقبال الطيف الجائع الى الزاد الجديد .

.... هل دعـوة للحب هذا الصوت
والطيف الـذي يلمـع في الشمس
تجسـد واغترف من جسـدي
خبزا وملحـا ، خمـرة ، ونـار
وحـدي على انتظـار .

تحرق صاحبنا الى الحب ، مبعثه هذا الفراغ الكياني الذي لم يعرض له من قبل . فالانتظار في قسوته يفوق نكال الامتلاء الجحيمي الاول . غير ان الرؤيا قضت على حالة التأرجح هذه . فلم يطل تغريب الطيف فـــي المتاهة ، حتى امتثل للرائي في سمت الكبراء . وسرى في المدينة الـــى كيان ينتظره .

تطلع السندباد الى ذاته ، فوجدها قد مالت الى الكبر ، واشتط عليها العمر . فتبدى الى جانب رفد الحب في مرآة دخيلتها غضون محجـــر وانكفاءة لون ولكن هيهات تصمد دفعة الحياة في وجه مبرد العيش .

العمـر لـن يقـول
يا ليت مـن سنين
مـلء يـدي وساعـدي

دار العلم للملايين

١ ـ قصة اللاعنف في جنوب افريقية
للمهاتما غاندي ترجمة الاستاذ منير البعلبكي

٢ ـ الزنبق والدم — شعر للاستاذ رفيق الخوري

٣ ـ القدر — قصة شرقية لفولتير ترجمة الدكتور طه حسين

٤ ـ اراء واحاديث في التاريخ والاجتماع
للاستاذ ساطع الحصري

٥ ـ التاريخ الحضاري عند توينبي
للاستاذ منح خوري

٦ ـ الفقه على المذاهب الخمسة
للاستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

٧ ـ البلاد العربية والدولة العثمانية
للاستاذ ساطع الحصري

اطيب مانزهو بـه الفصول
في الكرم والينبوع والحقول
العمـر لـن يقـول
ياليت مـن سنين

على ان احتفال السندباد بالحلوة البريئة امر لازم . خصوصا وانهـا تمثل بنظره نقيض المرأة التي محضها الحب في « الاقبية الوطيئة » . فهي باول النور اشبه ، وطهرها اقرب الى مجاجة الزنبق من الزنبق ، واصفى من قبلية التجربة المربية ، لانها تجربة دائمة على تنزه وتصون .

تجسد الخلاص في شكل هذه المرأة ، وسرت نحوها اللطائف الكونيـة في مهرجان وثير . فلا مكان بعدها للتربة الدافئة ، وللبيدر العافية ، وللسمرة المزينة ، وللنكهة المستطابة . فهي لنفسها اكتفاء ، ولغيرهـا كفاء ، تمور بالعطاء الثر فيرشح منه على دخلة السندباد فواصل ندية .

يكفيني شبعت اليوم وارتويت
الحلـوة البريئـة
تعطي وتدري كلمـا اعطـت
تفـور الخمر في الجـرار ،
بريئـة جريئـة
جريئـة بريئـه
في شفتيها تزبد الخمـر
وتصفو الخمر في القـرار .
لـن بتخلى الصبح عنا اخـر النهار

ولكن الرؤيا انحدرت فجأة من كمال خطها البياني ، الى درك الواقـع المزري . فعاد الى الدار اعتلالها ، وفورت البئر من جديد جفافا وعتمة ، وسحب الطيف اذياله ، وفي النفس خوف على الخلص من وحشة قاتلة .

تمضي الى غرفتها تعثر في وحشتي
وحـدي
مـدى عتمتي
مـدى ليالي السهـاد
دقـات قلبي مثل دلـف اسـود
تحفـر الصمت ، تزبد السـواد .

النعمة التي عرضت السندباد في رؤاه ، زاد في كثافتها احتشـاد الصور وتلاحقها . ولكن سرعان ماتزايل شبح المحبوب عندما لامس فـي دخيلة المحب مخاضا جديدا ، فيه من النبوة صدق الرسالة ومن الوجود المنفتح ايـد ووثـوق .

رؤيا ونعمة مكتملة .

وبعد ، هل العودة الى الجحيم الارضي ، الى الدار المعتمة ، وليـدة معاناة ظلت مشبوهة لم تستقر على نهائية بعد ، ام انها نتيجة نكسـة نفسية تردى فيها السندباد عندما زهف الى الكبر ، وما زال به ضـرم المحبين واشتياقهم ؟

اغلب الظن ان عدم الاكتفاء بالحب المبرور ، ليس فقط تجاوزا لاحساس عارض ، هو في تجربته الفردية لصيق بالزوال ، بل تجسيدا لمأسـاة الانسان من دوران الزمن عليه . هذا الشعور المزدوج ولد في نفـس السندباد ارتدادة كبر واستعلاء . انها في اطلاقها الاخير قد استجمعت الاتي عندما اجتوت الحاضر ، وجعلت الانسان الفرد بأحاسيسه الصغرى يصب تجاربه في ذات الانسان الاكمل ، ويروح من ضمن هذه الشخصيـة يبني في اجتهاد تفاؤلي عجيب جيلا قد اغتسل من دمغة الخطيئة .

هذه اللفتة الانسانية في تجاوزها للزمان وللمكـان ، هي ثمرة الرؤيـا الحقيقية ، التي تهزأ بالواقع وتبز في صدقها علمية الاشياء المحسوسة .

رؤيـا يقين العـين واللمس
وليست خبرا يحـدو به الرواة

لقد عاين صاحبنا خلقا جديدا ، وتراءى له في خماره تفوير يبتلـع الطين العاهر ، ويمسح حدود الاثم . واذا بالتماسيح تفور ، وبالذنـوب تنجلي وباليوم يبرأ من عفن الامس . فالعائد الجديد شاعر يحنو علـى الاخضر في بلاده ، ويتعهد السرحة النامية بفيض من حبه غزير .

لانسله الان عن رحلاته السبع . فهو لايعيها ، ولا يحسها . أليسـت جميع رحلاته رحلة لم تبلغ غايتها الا في دخلة نفسه ، حيث المغامرة سعي دائب لاقتناص الخاطرة الولدة ، بعد الاقتناع بضرورة تبديل القيم . هذه الخاطرة التي تفطن الى الاشياء قبل حدوثها ، فتشيد للاتي بـارادة ، متجاهلة سببية الاحداث في تواردها الصحيح .

اميل المعلوف

***

الرأي الثاني

بقلم رئيف عطايـا

داب بعض الشعراء العرب حتى السنوات الاخيرة على تمثل الشعـر بشكل خارجي في تعقيد الفكرة وتثقيفها ، او تزويقها والعبث ببهلوانية المعاني والكد الذهني . لذلك اقتصر ذلك الشعر على نوع من الجمـال الحسي الذي تطرب فيه النفس بجلبة الوزن والقافية ، او تفتن فيه العين بالصور البصرية ، ويغوي الذهن بالقصدية والتمحل . ولقد تغلب على ذلك الشعر ضرب من الوصفية التي تكتفي بتقرير ظاهر الاشياء ، والشخوص في حدقة المنطق وحدود التشابيه وسائر انواع التشابيـه التي تنقل الوجود نقلا ، من دون تلك الحلولية التي توجد بين ذات الشاعر والوجود . وهكذا لبثت القصيدة عامة كجدار من الفسيفساء تمتزج فيه المعاني واصباغ الاستعارة والتشبيه ، فتدهش بالغرابة ، وتخلب بالتعقيد وتثير بالتزويق ، لكننا قلما نشهد فيها ملامح الانسان وسورة قلقه وضجره وتنازعه .

وقد تأدى من ذلك ان لبث الشعر والنثر يصدران عن التفكير الواعي الذي يحدق ويتفرس بالاشياء ، وليس عن الذهول الذي ينطلق وينزع منها . ولم يكد يختلف احدهما عن الاخر ، الا بتعقيد الصورة والحلـة

دراسـات ادبيـة

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث — للدكتور محمد مندور

في ازمة الثقـافة المصرية — لرجـاء النقـاش

نزار قباني شاعرا وانسانا — لمحيي الدين صبحي

البيانية . لهذا فقد لبثنا نتأثر بذلك الشعر تأثر الدهشة والاستغراب ، لكننا قلما شعرنا بالنشوة التي تولدها الاثار الفنية الخالدة . فالشعر ليس تاليفا للصور ذات الجمال الخاص والتي تغوي العين الشغوفة بالالوان ، ان النفس غير المثقفة التي تميل الى الانفعالات الصاعقة والمشاهد الغريبة ، وهو ايضا يختلف عن تلك الاباحية المنكرة التي لا ينفك بعض الشعراء يثيرون بها عصب المراهقين . وانما الشعر هو تلك التجربة الراغمة التي تتولد من تنازع النفس لمصيرها وبقائها ، اكان ذلك المصير ماديا في تحصيل لقمة العيش ، ام معنويا ما ورائيا في الوصول الى الحقيقة الكبرى . وذلك يعني ان الشعر هو وليد تلك الحالات التي تستبد بالمرء رغما عنه مضيئة في ظلمة نفسه شعورا بخفايا الوجدان، لا قبل للانسان به في واقعه العادي الشائع . لهذا فان الشعر الحق هو الذي يتولد من قلق العصب الوجودي ، اي ذلك التوتر بين الكفر واليقين بين الرذيلة والفضيلة بين التقليد والثورة ، بين الحياة والموت وما يشخص بين شاطئيهما من اسى وحيرة وانسحاق امام جدار الكون . ولقد تعفت تلك المرحلة التي كان الشعر فيها زخرفة للمعاني والصور الطريفة المتندرة واصبح شريكا للانسانية تنعكس فيه مأساتها وتمزيقها وتمفرها في جهلها لحقيقتها وغايتها .

ولعل هذا التفهم الجديد لرسالة الشعر ، هو الذي يجعل لقصيدة السندباد في رحلته الثامنة » قيمة خاصة . فهي تحقق الذروة التي اوفى اليها اتجاه الشعر الوجودي في الادب العربي المعاصر . لاشك ان بعض القراء يقتصرون في فهم رحلات السندباد على النوادر والاساطير التي تؤنسهم باجوائها الخارقة . الا ان وجه التندر هو وجه بل قناع خارجي ، يرمز في جوهره وحقيقته ، الى حيرة الانسان وقلقه وسامه من نفسه ومن الوجود فضلا عن تمزقه في التفتيش عن شيء يشعر به دون ان يبصره ويلتقيه . ورحلاته الدائمة ليست سوى ملاحقة لذلك المجهول ، او لذلك السراب الذي لا يتوهم انه عثر عليه ، حتى يتحقق انه افلت منه .

ولقد بدت هذه الرحلة الثامنة اخصب من سائر الرحلات لانها افادت منها جميعا ، وهي تمثل النتيجة النهائية التي اوفى اليها . ولقد بدأ السندباد فيها مبحرا وهو لما يزل يحمل داره في نفسه . والدار ، هنا كرحلة السندباد ، ذات معنى نفسي . انها تمثل ماضي الشاعر ، او بالاحرى ذاته القلقة التقليدية التي يصعب ان يتخلى عنها . لانه يكتسبها من البيئة والمجتمع دون ارادة او تفكير وتمثل .

ولا نعتم ان نرى الشاعر وقد ارتد للتحدث عن رحلاته السبع التي انتصر فيها على الغول والشيطان اللذين يرمزان الى الارواح الغامضة المنكرة ، والتصورات الواهمة التي ما برح الانسان يعبر فيها عن محاولته الاسطورية لاكتشاف اسرار الكون . ولقد دفن وبعث وتوهم انه انفتحت له نافذة من مغارة الكون المطبقة ، الا ان العبارة اعيت عن تجسيد الرؤيا التي اطلقت عليه ولبث يشعر انه ما برح يفتش عن ذلك الشيء ودون ان يدركه ويعيه :

رحلاتي السبع وما كنزته ــ من نعمة الرحمان والتجاره ــ يوم صرعت الغول والشيطان ــ .... دفني ، ثم ذاك الشق في المغارة ــ رويت ما يروون عني عادة ــ كتمت ما تعيا له العباره ــ ولم ازل امضي وامضي خلفه ــ احسه عندي ولا اعيه

فالشاعر ما برح يعاني تلك الحيرة ، يشعر بها كظلال غامضة في نفسه ، لكنه يعجز ان يعيها ويجسدها ويحدها بوضوح . وهكذا فان السندباد في مستهل رحلته الثامنة لبث يجذف في زورق الحيرة واللبس ، يعاني شعورا كالسراب يخطف في لحظة نفسية ، لكنه لا يعتمان يزول ويمحي عندما يحاول الشاعر ان يعيه ويقيده الا ان سعيه الدائم وراء المجهول الذي ما برح ينخطف له وينقرض كان يسوقه الى الخسارة والفقر والعري . وتوهم له ان يفرغ داره ، اي ان يتخلى عن ذاته القديمة وعن اطماعه وانانيته وسائر احلامه ، فينفق كل ما لديه ويعود الى عري النفس التي لم تشوهها المطامع والتقاليد ، لعل تخليه يغوي به ذلك المجهول ، فيقبل عليه ويسفر له :

ولم ازل امضي وامضي خلفه ــ احسه عندي ، ولا اعيه ــ وكيف انساق وادرى انني انساق خلف العري والخساره همي بان افرغ داري ، عله ــ ان مر تغويه وتدعيه ــ احسه عندي ولا اعيه ..

اما في المقطع الثاني ، فان الدار تغدو رمزا للحضارة ، او لتاريخ الانسان ، وتلك المراحل الحاسمة التي اثرت فيه وتقيد بها مصيره . ففي رواق تلك الدار وصايا موسى العشر ، والكهان الذين يقيمون اعراسهم الفاحشة ، يفضون سر الخصب ويفورون الخمر في الجرار .. وهنالك المعري الذي يمثل النقمة على الحياة ، والنظرة السوداء التي لا ترى الا القبح والفتن والمنكر ، ولو تلوت المرأة في ذلك العالم كالافعى تنفث السموم ، بينما حمت يد الرجل بالغيرة واللعنة ، وتحول الحب الى دم محتقن ملغوم في العروق :

نعضه تكوبه الف حرفه ــ وفي حنايا درج ــ في عتمه الاروقه ــ حشرجة مخنوقة وشهقة .

من منشورات دار الاداب

دواوين نزار قبـاني

زينـة لكل مكتبة

	الثمــن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لـي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهـد	٣٠٠ ق.ل
سـامبا	١٠٠ ق.ل
انت لـي	٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

بيروت ــ ص.ب ٤١٢٣

وهكذا ، فان دار الشاعر تتسع حتى تشمل الكون ، كما ان الشاعر ينطلق من نفسه فيصبح مصيره مصير الانسانية جميعا ، ولم يعد يفتش عن حقيقته بذاته ، بل يفتش عنها من خلال الحقيقة الانسانية العامة ، من خلال التاريخ والقيم الحضارية المقررة ، فيتحقق له ان الوثنية ليست سوى كاهن في هيكل البعل :

يربي افعوانا فاجرا وبوم ــ يفتض سر الخطب في العذارى ــ يهلل السكارى ــ وتخصب الارحام والكروم .

وذلك الافعوان ليس سوى الشهوة التي كانت تتلمظ في نفوس الكهان بكل ما في اعراسها من فحش ومنكر ووحشية ، اما اليوم فرمز الاضحيات التي كانت تسفح ويتلظى بها السعير في سبيل استرضاء الغيب واستدرار الخصب . وهكذا يتحقق لنا ان الصور والمعاني والافكار ما لبثت تنمو وتتجسد في تجربة الشاعر من خلال الرموز التي تتحد بها اتحادا داخليا ، حتى ليفرر لنا انهما يتولدان في لحظة نفسية واحدة او ان تلك الصور تتراءى للشاعر بحلة الرمز دون تجريد الافكار النثرية الكثيرة التحديد والتوضيح . والواقع ان الرؤيا تبقى على حالة الذهول في نفس الفنان ، لان الرمز لا يدل كاللفظ العادي على معنى واضح بل على ظلال كثيرة من المعاني التي يشعر بها الوجدان ويتاثر بها الخاطر ، قبل ان يعيها العقل ، ونكاد لا نشهد في هذه القصيدة صورة الا وقد تفتقت من خلال الرمز ، فكأن ذات الشاعر قد تمثلت حقيقة الحضارة والتاريخ ، وجعلت تعبر عن ذاتها من خلال واقعهما . ولقد تتابع هذا الخط الرمزي خلال التجربة الكلية التي تتطور مرحلة اثر مرحلة في القصيدة . لذلك نراه يعبر عن النفاق والمراوغة بالحديث عبر ذلك الرواق القديم بقوله :

بلوت ذاك الرواق ــ طفلا جرت في دمه الغازات والسموم ــ وانطبعت في صدره الرسوم ــ وكنت فيه والصحاب العتاق ــ نرفه اللؤم ، نحلي طعمه بالنفاق ــ يجرعه من « عسل الخليفه » ــ و« قهوة البشير » ــ اغلف الشفاه بالحرير ــ بطانة الخناجر الرهيفة ــ لحلوتي لحية الحرير

ان « عسل الخليفة » و « قهوة البشير » لايدلان فقط على التنافق والتبطن في الحديث ، بل على اسطورة تفشي ذلك المعنى وقد تناشأت عبر الزمن في بلاط الخلفاء حيث كانوا يدسون السم في الصل ، يقدمون حلاوة الحديث وحلاوة الطعم ويضمرون الغدر والوقيعة . ولقد كان الشاعر يحيا ورفاقه في ذلك الرواق القديم ، كما كانوا يحيون في بلاط الخليفة ، يتعاطون عسل المديح والتملق ويدس بعضهم للاخر ، بالغدر والوقيعة والشرور . ومهما حاولنا ان نوضح ذلك الواقع الذي كان يعايش فيه صحبه ، فاننا نعجز . اما « عسل الخليفة وقهوة البشير » فانهما يجسدان المعنى بكل مايتموج حواليه من الظلال النفسية التي يعانيها الشاعر معاناة والتي تتفرض وتزول عندما يتفكر بها . والواقع ان التجربة الشعرية الصافية ليست سوى غيبوبة تطل فيها الرؤى باحداق الرموز ، عندما تنحل في نفس الشاعر الرواسب القديمة التي افادها من تأملاته وثقافته ومضاعفاتها الوجدانية . فالرمز هو الفكرة قبل ان تعي ذاتها وانه يعبر عنها ويشير اليها فيما تكون وهما وضبابا يتراءيان من بعيد .

المرحلة الثانية : في المرحلة الاولى كان الشاعر يتنازع مع داره والرواق العتيق مع الحقد والخنجر ولبن افعى النفاق التي ما انفكت تدب في نفسه ولبث ينتظر ان يسفر له ذلك المجهول او يكتشف تلك الحقيقة او يقبض على سراب السعادة . الا ان الرؤيا لم ترسل اليه بروقها ورعودها ، وظل يشعر بوحشة الانفراد والعري والقسوة في داره ، وصحراء من الصمت والتفاهة والعقم :

طهرت داري من صدى اشباحهم ــ في الليل والنهار ــ من غل نفسي ، خنجري ، ــ لبني ، ولبن الحية الرشيقة ــ عشت على انتظار ــ لعله ان مر اغويه فما مر ــ وما ارسل صوبي ، رعده بروقه

الا ان شدةتحديق الشاعر والحاحه وانعامه بالعريوالصمت والانسلاخ اعتراه بمخاض الرؤيا وتلمس المجهول فاذا به كيوحنا يغيب في قلب العتمة ، وبتولا شراع تعبث به الرياح السوداء ، فيحتضر وينتزع عنه حلة الجسد ، وهو وعاء الفساد والخطايا والرذائل :

كيف انطوى السقف انطوى الجدار ــ كالخرقة المبتلة العتيقه ــ وكالشراع المرتمي على بحار العتمة السحيقة ــ حف الرياح السود يحفيه ، وموج اسود يعلكه ، يرميه للرياح ــ اغلقت الغيبوبة البيضاء عيني ، تركت الجسد المطحون والمعجون بالجراح ــ للموج والرياح .

وهذه الرؤيا ذات معنى نفسي كسائر ابيات القصيدة . فالعتمة هنا التي غشتسقف البيت وطوفت به في بحار العتمة ، ليست في الواقع سوى الياس الذي طفق الشاعر يعانيه بعد ان تخلى عن كل شيء دون ان يوفق بتحقيق ذاته وتلمس ذلك المجهول . والزورق الذي عبثت به الرياح ، ليس سوى زورق الشك والريبة والتنازع في خضم الفكر وكذلك الجسد فهو كما اشرنا ، ليس سوى رمز للمادة وللتقاليد التي تشوه الغرائز وتبعد الانسان عن حقيقته .

مرحلة الانتقال او اليقظة الاولى

ولا يعتم الشاعر ان يفيق على شاطىء من جزر الصقيع ، وقد نطمع

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ــ ص.ب ٤١٢٣

طعم الملح والبوار في نفسه وجعل يبصر الزهر والثمار .

في شاطىء من جزر الصقيع ، كنت ارى فيما يرى المبنج الصريع ـ صحراء كلس مالح بوار تمرج بالثلج وبالزهر وبالثمار ـ داري التي تحطمت ، تنهض من انقاضها تختلج الاعشاب ـ تلتم وتحيا قبة خضراء في الربيع

وهكذا ، فان جسد الشاعر تفلت من الصقيع وتفت عروقه من السدم المتحقن بالغاز والسموم ، وامحت الدمغات والرسوم عن لوح صدره وتولاه صحو عميق وكان الشاعر قد اتحد عبر غيبوبته بينبوع الوجود فانسكبت في عروقه حياة جديدة نفت عنه القلق الوجودي والياس المتراخي.

لعلها الغيبوبة البيضاء والصقيع شدا عروقي لعروق الارض كان الكفن الابيض درعا ـ تحته يختمر الربيع ـ اعشب قلبي ، نبض الزنبق فيه والشراع الغض والجناح ـ عريان وما يخجلني الصباح .

والعري هنا هو ، كما اسلفنا ، التخلي عن كل مطامع الارض وسائر اساليب الدجل والنفاق ، ووجوه الرذائل والخطيئة ، الا ان داره لبثت عارية ولبث على انتظار مرة ثانية :

وحدي على انتظار ـ افرغت داري مرة ثانية ، احيا على جمر طري طيب وجوع ـ كان اعضائي طيور عبرت بحار ـ وحدي على انتظار

وسرعان ما يلتقي بالمراة الجديدة في زحمة المدينة .

في ساحة المدينة كانت خطاها زورقا يجيء بالهزيج ـ من مرح الامواج في الخليج ـ كانت خطاها تكسر الشمس على البلور ، تسقيه الظلال الخضر والسكينه ـ لم يرها غيري في ساحة المدينة .

وهذه المراة تختلف عن المراة القديمة التي كانت تروغ كالافعى وتنفث السم وتتنافق وتثير الغيرة القاتلة . تلك امراة مرهقة ، تاكل من العصب ، اما هذه المراة الجديدة فهي بريئة بتول ، تحررت من الافعى التي كانت تتلمظ في نفسها وتطهرت من المكر والريبة والخداع :

كانها في الصبح شقت من ضلوعي ـ نبتت من زنبق البحار ـ ما عكر الشلال في ضحكتها ـ والخمر في حلتها ـ رعب من الخطيئة ـ وما درت كيف تروغ الحية الملساء في الاقبية الوطيئه ـ

وبدلا من ان يفض الخصب كالكاهن بالفحش الافعواني ، فان الجرار طفقت تمتليء بالخمر الذي يفيض من شفتي تلك الحلوة البريئة :

في شفتيها تزبد الخمر وتصفو الخمر في القرار ـ لن يتخلى الصبح عنا اخر النهار

ويخيل للشاعر في غبطته ان النعيم يفيض من نفسه على البشرية ، ويبث فيها الالفة والانس :

غريبة ومثلها غريب ـ حيث نزلنا ارتفعت دار لنا ودار ـ خف الينا الف جار متعب وجار ـ في دوخة البحار ـ وغربة الديار

الا ان هذه الرؤيا لم تؤد به الى التكامل والصفاء بل لبث على انتظار من جديد ، ولبث يحس ذلك الشيء دون ان يعيه . وتعود الرؤيا تفور في نفسه من جديد وتعجز العبارة عن التبشير بها ، وقد ظل الشاعر عاجزا عن البوح بما في نفسه :

دقات قلبي مثل دلف اسود ، تحفر الصمت تزيد السواد ـ وكان ما عاينت معا ليس يرى عادة ، او يعاد ـ اعاين الرؤيا التي تصرعني ، حينا فابكي كيف لا اقوى على البشارة ـ شهران طال الصمت جفت شفتي متى متى تسعفني العبارة .

وسرعان ما يتعفى ذلك الرواق العتيق وينشا بدلا منه قلعة من رخام وقد نبتت من طحين اللحم والعظام :

اعمدة تنمو ويعلوها رواق اخضر صلب بوجه الريح والثلوج ـ المحور الهادىء والبرج الذي يصمد في دوامة تبتلع البروج ـ رؤيا يقين العين واللمس ، وليست خبرا يحدو به الرواة ـ ماكان لي ان احتفي بالشمس ، لو لم اركم تغتسلون ـ العبح في النيل ، وفي الاردن والفرات ـ من دمغة الخطيئة ـ وكل جسم ربوة تجوهرت في الشمس ظل طيب بحيرة بريئة .

وتتمادى به الرؤيا حتى يقول :

احببت لا ما زال حبي مطرا يسخو على الاخضر في ارضي ـ عداه حطب وقود ـ تحرقها الرؤيا بعيني دخانا ما لها وجود ـ وسوف ياتي زمن احتضن الارض واجلو صدرها ـ وامسح الحدود .

تلك كانت المراحل التي تطورت القصيدة من قبلها ، وقد بدت كالبناء المتكامل الذي ينشا وفقا لهندسة قائمة موحدة . لا شك ان الشاعر يعبر عن قضية من قضايا المصير كما ان الرؤيا النهائية تلونت بالالتزام الا ان الالتزام ينبع من داخل نفس الشاعر يتولد تولدا حتميا من قلب تلك الصيرورة الداخلية التي كان يتمخض بها منذ مطلع القصيدة .

ولئن كان الشعر الخالد ، كما اسلفنا هو الذي يعبر عن قضية من قضايا المصير من خلال قلق العصب الوجودي في النفس ، فان هذه القصيدة في عمق الثقافة التي رفدت الشاعر ، نفذ الى ابعاد نفسية وفنية لم نكد نشهدها في الشعر العربي ، وذلك لان الشعر يتوحد في نفسه بوحدة حية مع الخيال حتى ليتحقق لنا ان الشاعر يرى شعوره بعيني خياله بقدر ما يشعر به . وهكذا فان الصورة في قصيدته لم تات كالدمية الميتة بل انها تفيض حيوية وحرارة لانها متولدة عن تلك اللمحة العجيبة التي يضيئها الشعور في حدسه الفائق والتي لا تتيسر الا لكبار الفنانين ممن انحلت في ذواتهم الحدود بين الاشياء في حلولية الرؤيا الداخلية .

الخنشارة **رئيف عطايا**

المجموعة الجنسية

تعالج اهم القضايا الجنسية على ضوء العلم الحديث

صدر منها

		ق.ل
١ ـ الحب بدون خوف	ترجمة : لويس لويس	١٠٠
٢ ـ الحب والحياة الزوجية :	« « «	١٠٠
٣ الحب الكامل	« « «	١٠٠
٤ ـ العلم في خدمة الحب	« « «	١٠٠
٥ ـ جنة الحب	« « «	١٠٠
٦ ـ الطب في خدمة الحب	« « «	١٠٠
٧ ـ ربيع الحب	« « «	١٠٠
٨ ـ الضعف التناسلي	« « «	١٠٠
٩ ـ السلوك الجنسي عند الرجل	« « «	١٠٠
١٠ ـ السلوك الجنسي عند المراة	« « «	١٠٠
١١ ـ طريق الحب	« « «	١٠٠
١٢ ـ اطفالنا والثقافة الجنسية	« الدكتور فخري الدباغ	١٠٠

الناشر : دار بيروت